جـميـــلة

فــاروق وادي

مــن يعرف جميلة، ســيلحظ كم غدت في أيّامها الأخــيرة امرأة بالغة التعاســة.. تائهة الروح، زائغة العينين، وغريبة الأطوار. تقطع المسافة المتطاولة على الكورنيش، ما بين عين المريسة والرملة البيضاء، باحثــة في الأرض أو في الأفــق البعيد، في تفاصيل الليل الهائــم فوق البحر وفي رائحة الموج، عن شيء ضاع منها.. ففقدت بضياعه نفسها وبوصلة يومها وحياتها.

الأغرب من ذلك، أن جميلة أصبحت تقطع المســافة التــي تحفّ الصخر والرمال والمقاهي البحريّة، بانحناءاتها وتعرجاتها، دون أن تتوقّف لحظة عن طلي وجهها بالمســاحيق وشــفتيها بالأحمر القاني. وإذا ما توقفت فلكي تُغرق نهديها وتحت إبطيها بنوع من العطر لم يعد يتغيّر، فيثير حولها ســحابة وردٍ حادّ الأريج، غريب الرائحة، بات يميِّزها عن غيرها، وكأنما صُنع من أجلها وحدها.

ما الذي حصل يا جميلة، فأفقدك رشــدك وجعل جسدك يذوب ويتقصّف يوماً بعد يوم ليذبل معه ألق الرّوح. تمشين مُسرنمة، كأنك تتسكعين في غيبوبة لا تعرف طريقاً تهدي إلى اليقظة؟!

ـ إنه الحبّ..

تقول جميلة وهي تبتسم بشحوب جارف يجتاح وجهها وروحها، ثمّ تحدِّق في الفراغ. غير أنها تمسك عن التفاصيل، مهما بدت الأسئلة عنيدة، والسائل ملحاحاً.

الذين يعرفون جميلة، يعرفون مهنتها التي تتعيّش منها منذ وقتٍ بعيد. كانت حُرّة، لكنها لم تتحمّل قرصات الجوع، فأصبحت تأكل بثدييها. الكلّ يعرف ذلك. والكلّ يعرف أن جســدها بات مســتباحاً

منذ زمن طويل. غير أن الكلّ يعرف أيضاً أن جميلة تبيع متعة الجســد منذ ذلك اليوم الذي عملت فيه لدى «ماريكا» في واحدٍ من أزقة ساحة البُرج وسط المدينة، والتي تقع خلف البنك هناك. لكنها غادرت بيت المعلِّمة بعد أن مسّــته النيران الأولى لحرب الأخوة الأعداء حتّى جعلته رماداً. فاختارت منذ ذلك الوقت أن تمشي على الكورنيش، ما بين عين المريســة والرملة البيضاء، من الغســق وحتّى الهزيع الأخير من الليل:

ـ جسد للبيع.. جسد للبيع..

ينبعــث النداء الصّامت صريحاً من جوف جميلة. غير أن البيع ظــلّ محاصراً بشرطٍ وضعته البائعة لنفسها والآخرين، وهو أنها لم تكن لترضى بأن تُفرِّط يوماً بشفتيها لعابر سبيل.

كانوا يسألونها:

ـ وبكم تبيعين القبلة يا بائعة الجسد؟!

فتردّ بحزمٍ وحسم:

ـ لا..لا.. القبلة ليست للبيع.. إنها تُمنح مجاناً!

ثمّ تضيف للتوضيح:

ـ لكن ذلك لن يكون إلاّ لحبيبي!

ـ ومن هو حبيبك يا جميلة؟

ـ سوف يجيء.. حتماً سيجيء!

ولقــد ظلّت جميلة على عهدها مــع زبائنها من الطلبة والمراهقين، الذيــن ارتضوا من بائعة الهوى العابر اجتناب الشفتين، ووافقوا على حذف القبلة من متعة جسد يشترونها بثمن يقدرون عليه.

مع الأيّام، أصبح الجســد الفتيّ يتراخى شيئاً فشيئاً، وبات يهتزّ بشحومه الوارفة، متثاقلاً وهو يقطع المسافة بين عين المريسة والرملة البيضاء. فلم تعد جميلة مرغوبة سوى لعمّال المياومة، الذين تركوا زوجــات لهــم في القرى البعيدة النائية وهنّ يتضوّرن رغبة، فيما هــم يقطفون ليراتهم القليلة التي تمنحهم كفاف يومهم من الخبز والطعام الرخيص.. وجسد جميلة.

كانت جميلة تفترش مع رجلها العابر رمل الشّـاطئ الليليّ وتتغطّى بظلمة دامسة ستّارة. تمارس مع زبائنهـا فعلاً سريعاً، مرتجـلاً، ملفّقاً. وكانوا جميعاً، الذي مضى منهم، والمقيم، وربما من سـيأتي من بعدهم، يعرفون أن جميلة تُقدِّم لشريكها كلّ شيء إلاّ القبلة!

***

في تلـك الليلة التي حـدث فيها التحوُّل الذي قَلَبَ حياة جميلـة، كان القمر مُدوّراً، ينثر فضّته على الرّمل وماء البحر وزبد الموج، عندما اقترب منها ذلك الرّجل الغريب وهي تمشي على رمل الشاطيء، تسبقه إليها رائحة عرقٍ ذكوريّ طاغٍ، دهمتها مثل هبّة هواء قادمة من عُمق البحر.

كانـت الرائحة حادة، حريفة، أربكتها إذ تغلغلت في مسـامات جسـدها. فيها من رائحة الطحالب والموجِ الآتي مع فجرٍ مندّى. بدا الرجل وكأنه مولود من صدف البحر، مع أن رائحة ترابٍ ريفيّ بعد مطرٍ أوّل ظلّت تخالط رائحة عرقه التي لا تشبهها رائحة. غير أن ما أربك جميلة أكثر، أن الرّجل قال لهـا إن رائحتهـا هي التي جذبته إليها من مكان قصيّ في المدينـة.. من شرقها الذي هناك. فهل هي رائحـة امتـزاج عطرها مع عرق بدنها، أم هي رائحة المسـاحيق التي تضعها على وجهها مع الأحمر على شـفتيها. أم إنها رائحة مكتنزة في مكان سريّ من البدن، مخبأة لمثل هذه اللحظة.. ولرجل مثل هذا يستحقّ عبيرها؟!

سألها الغريب الذي لم يكن قد رأى جميلة من قبل:

ـ بكم تبيعين القبلة يا امرأة؟

كان الرّجل يتضوّر رغبة لامتصاص رحيق الشفتين. فكرّرت جميلة إجابتها الجاهزة:

ـ كلّ زبائني على الكورنيش يعرفون أن قبلتي ليست للبيع..

ثمّ أضافت بتلقائيّة، دون أن يُبدي الرجل دهشة أو يطرح استفساراً:

ـ.. إنها مخبأة لحبيبي!

وعندما طرحت عليه ثمن الجسد منزوع القبلات. إكتفى بالقول:

ـ أنـت يا امرأة لا تقدّرين بثمن. وهذه الرائحة التي جذبتني من بعيد، لا مثيل لها في امرأة أخرى..

في أيّ مكان في الكون!

ارتبكت جميلة وقد ألجمتها عبارة الرّجل وحمّمتها بخجل يستر رعشة فخرٍ خفيّ لم تعرفها من قبل، فازدادت رائحة الرّجل الغريب توقداً، وسرحت في تفاصيل جسدها لتجتاح كلّ أرجاء البدن وزواياه الحميمة.

توسّدت جميلة الرّمل في زاوية متوارية على الشاطىء، متدثرة بالعتمة، لتمنح الأرض ظهرها والرّجل جسدها وكلّ عبقها، ولتغرق هي في رائحته الطاغية.

على صفحة السـماء العالية المرشـوقة بالنجوم. رأت جميلة نجمة تغمز لها من بعيد. وفجأة، دون مقدمات، وبإرادة مسـلوبة تماماً، مقادة بسلاسل لامرئيّة، وجدت نفسها منجذبة للقيام بفعلٍ دون حساب، ومن تلقاء نفسها..

حرّكت شـفتيها نحو الرجل الذي ما جاء إلاّ ليقبلها ويمضي. وما أن تلامسـت الشـفاه حتّى توقدت بنيرانٍ مخبوءة منذ زمنٍ بعيد يسـبق الزّمن، واحتدمت في مزيج العسـل والروائح المؤجِّجة المنبعثة من أمكنة حميمة. وعندما مسّ اللسـان اللسـان، اشـتعلت الغابات في الأقاصي البعيدة للجسدين المذابين في ليل المدينة. ارتعشـت النجمة في سمائها، وارتعشت جميلة على أرضها للمرّة الأولى، رغم آلاف الرجال الذين عبروا حدود الجسـد المباح. اخترق السّهم الحارق جدار القلب الذي طال تمنُّعه وتطاولت منعته، وشعرت جميلة أن قلبها ينخلع ليخفق في الحنايا والضلوع، كما لم يخفق من قبل.

أبت أن تتناول الليرات الكثيرة الممدودة من يد الرّجل، وتركته بقبلة وداع، ووعد باللقاء..

لم يأتِ الرّجل مرّة أخرى، فقد انفجرت المعارك وتطاولت نيرانها. تقاسـم المتقاتلون المدينة بين شرق وغرب، ورشقوا الأرض بالحواجز. لم يأت الرّجل، رغم ملايين الموجات القادمة من البحر، ورغم مرور فصول وتجدُّد شتائين حرّكت زخاتهما الأولى غبار الأرض ورائحة التراب.

أمّا جميلة، فقد توقفت منذ ذلك اليوم عن ترديد نداءاتها المعتادة.. جسـدُ للبيع.. جسـد للبيع. وقد أصبحت تقول، عندما يستوقفها أحدهم وهي تمشي على الكورنيش، ما بين عين المريسة والرملة البيضاء، منهمكة في رشّ عطرها تحت الإبطين وما بين النهدين، أو طلي وجهها بالمساحيق وشفتيها بالأحمر:

ـ لا.. هذا الجسد لم يعد للبيع. إنه لحبيبي.. ولن يكون إلاّ لحبيبي!

كبرت جميلة خلال عامين احتدمت فيهما الحرب، ومرّا مثل أزمانٍ طويلة، مملّة وقاسـية. وفي أيامها

الأخيرة، عانت العاشــقة من الهزال. جفّ عودها ونشف نسغ الروح فيها. ضمر الجسد وذاب عشقاً وانتظاراً ولوعة. أصبح شعرها مشعثاً. صار يتقصّف ويتساقط على الأرض حيثما حلّت، فيُنبت عُشباً محترقاً. أخذت تبالغ في التعطُّر وطلاء وجهها وشــفتيها بالمســاحيق والأصباغ وهي تمشي على امتداد الكورنيش، من عين المريسة وحتى الرّملة البيضاء، حتّى تراكمت طبقات الألوان فوق بعضها وباتت تنــمّ عن قباحة تتكرّس يوماً بعد يوم، حتى قيل للتندُّر، إن جميلة أنجبت ابن زنى بعد ليلة أفرطت فيها في العمل، لكنها أكلت المولود ابن يومه، وتلك هي آثار الفعلة الشنيعة واضحة على شفتيها!

والحقيقة التي لم تعد قابلة للإنكار، هي أن جميلة قد جُنّت. وفي كلّ يوم كانت تغوص أكثر في عالمٍ لا عقل له. يراها الناس وهي تضحك أو تبكي دون سبب يدعو للضحك أو البكاء، لكنها ظلّت تبتسم للنســمة العابرة الآتية من البحر. أصبحت تمشي على الكورنيش بعطرها المهيّأ ومســاحيقها وأحمر شفاهها الزّاعق الخارج عن حدود الشفتين، رغم القصف العنيف المتبادل بين الشرق والغرب.

تعــوّد الناس على جنون جميلة، بدت لهم أنها جزء من جنون القصف الذي عرفته بيروت وتعودوه حتّــى الإدمان. غير أنهم اســتيقظوا ذات صباح، بعد أن هدأت أصــوات المدافع، بعد يومين وليلتين مــن القصف المتبادل المتواصل، فلم يجدوا جميلة. وقد احتاجوا لأيّامٍ أخر ليكتشــفوا أن جميلة قد اختفت عن الأنظار تماماً ولم يعد لها وجود. تساءل الناس الذين افتقدوا مشهد المرأة التي تمشي على الكورنيش مع أصباغها الزّاعقة: أين راحت جميلة.. أين ذهبت.. أين اختفت؟!

هدأ القصف دون أن يهدأ الســؤال المدوّي. ولم يكفّ شرق بيروت عن محاولات العثور على إجابة: قيــل إن رجلاً جاءها في زورق توقف عند المنحنى الصغير الحــادّ في الرّملة البيضاء، احتضنها وقبلها بلهفة، ثمّ شــدّها من ذراعها وعاد بها في زورقه محمولاً على الماء إلى حيث جاء. وقيل إنها قطعت الحواجز عند البربير والمتحف ومضت بخطى واثقة نحو الشّرق، حيث كان ثمّة رجل يفتح لها ذراعيه من خلف المتقاتلين الذين هناك.

وقيــل إن قذيفــة خطفتها في ذروة القصف وهي تســير على الكورنيش تائهة، غــير آبهة بالقذائف المنطلقة من الشّرق والقادمة من الغرب، لتأخذها إحداها إلى حيث الحبيب الذي ينتظر!

الذيــن يرجحــون الاحتمال الأخير، يقولون إنهــم عثروا هناك، على رصيــف الكورنيش، حيث كانت جميلة تســير، في المسافة بين عين المريســة والرّملة البيضاء، على زجاجة عطر أليف الرائحة.. وعلب مساحيق كثيرة.. وأقلام أحمر شفاه!